ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ ﴾

قوله : ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [الكهف] يعطينا إشارة إلى المهلة التى سيعطيها لهؤلاء ، مهلة تمكّنه أنْ يعظهم ويُذكّرهم ويُفهّمهم مطلوبات دين الله .

وسبق أن قلنا : إن الظلم أنواع ، أفظعها وأعلاها الشرك بالله ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان]

ثم يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [الكهف]

فلن نُعذّبه على قدْر ما فعل ، بل نُعذّبه عقوبة دنيوية فقط ؛ لأن العقوبات الدنيوية شُرعَتْ لحفظ توازن المجتمع ، وردْع مَنْ لا يرتدع بالموعظة ، وإلا فما فائدة الموعظة فى غير المؤمن ؟ لذلكَ نرى الأمم التى لا تؤمن بإله ، ولا بالقيامة والآخرة تُشرِّع هذه العقوبات الدنيوية لتستقيم أوضاعها .

وبعد عذاب الدنيا وعقوبتها هناك عذاب أشدّ فى الآخرة ﴿ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [الكهف] والشىء النكر : هو الذى لا نعرفه ، ولا عَهْد لنا به أو أُلْفة ؛ لأننا حينما نُعذَّب فى الدنيا نُعذَّب بفطرتنا وطاقتنا ، أما عذاب الله فى الآخرة فهو شىء لا نعرفه ، وفوق مداركنا وإمكاناتنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾

قوله : ﴿فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ .. (٨٨)﴾ [الكهف] أى : نعطيه الجزاء الحسن ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨)﴾ [الكهف] نقول له الكلام الطيب الذى يُشجِّعه ويحفّزه ، وإنْ كلّفناه كلّفناه بالأمر اليسير غير الشاق .

وهذه الآية تضع لنا أساس عملية الجزاء التى هى ميزان المجتمع وسبب نهضته ، فمجتمعٌ بلا جزاءات تثيب المجدّ وتعاقب المقصّر مجتمع ينتهى إلى الفوضى والتسيُّب ، فإنْ أمنَ الناسُ العقابَ تكاسلوا ، وربما ما تعانيه مصر الآن من سوء الإدارة راجع إلى ما فى المجتمع من أشخاص فوق القانون لا نستطيع معاقبتهم فيتسيَّب الآخرون .

وكذلك نرى المراتب والجوائز يظفر بها مَنْ لا يعمل ، ويظفر بها مَنْ يتقرب ويتودد ويتملّق وينافق ، ولهؤلاء أساليبهم الملتوية التى يجيدونها ، أما الذى يجدّ ويعمل ويخلص فهو مُنْهك القوى مشغول بإجادة عمله وإتقانه ، لا وقْتَ لديه لهذه الأساليب الملتوية ، فهو يتقرب بعمله وإتقانه ، وهذا الذى يستحق التكريم ويستحق الجائزة . ولك أنْ تتصوَّر مدى الفساد والتسيّب الذى تسببه هذه الصورة المقلوبة المعوجة .

إذن : فميزان المجتمع وأساس نهضته : ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨)﴾ [الكهف]

فما أجملَ أنْ نرصُدَ المكافآت التشجيعية والجوائز ، ونقيم حفلات التكريم للمتميزين والمثاليين ، شريطةَ أنْ يقومَ ميزان الاختيار على الحق والعدل .

والحُسْنى : أفعل التفضيل المؤنث لحسن ، فإذا أعطيناه الحسنى

فالحسن من باب أَوْلَى ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ .. (٢٦) ﴾ [يونس]

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) ﴾

أى : ذهب إلى مكان آخر.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَطْلِعَ الشَّمْسِ .. (٩٠) ﴾ [الكهف] كما قلنا فى مغربها ، فهى دائماً طالعة ؛ لأنها لا تطلع من مكان واحد ، بل كل واحد له مطلع ، وكل واحد له مغْرب حسب اتساع الأفق .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) ﴾ [الكهف] السِّتْر : هو الحاجز بين شيئين ، وهو إما ليقينىَ الحر أو ليقينىَ البرد ، فقد ذهب ذو القرنين إلى قوم من المتبدين الذين يعيشون عراة كبعض القبائل فى وسط أفريقيا مثلاً ، أو ليس عندهم ما يسترهم من الشمس مثل البيوت يسكنونها ، أو الأشجار يستظِلّون بها .

وهؤلاء قوم نسميهم « ضاحون » أى : ليس لهم ما يأويهم من حَرِّ الصيف أو بَرد الشتاء ، وهم أناسٌ متأخرون بدائيون غير متحضرين . ومثل هؤلاء يعطيهم الله تعالى فى جلودهم ما يُعوِّضهم عن هذه الأشياء التى يفتقدونها ، فترى فى جلودهم ما يمنحهم الدفء فى الشتاء والبرودة فى الصيف .

وهذا نلاحظه فى البيئات العادية ، حيث وَجْه الإنسان وهو

مكشوف للحر وللبرد ، ولتقلبات الجو ؛ لذلك جعله الله على طبيعة معينة تتحمل هذه التقلبات ، على خلاف باقى الجسم المستور بالملابس ، فإذا انكشف منه جزء كان شديدَ الحساسية للحرِّ أو للبرد ، وكذلك من الحيوانات ما منحها الله خاصية فى جلودها تستطيع أنْ تعيش فى القطب المتجمد دون أن تتأثر ببرودته .

وهؤلاء البدائيون يعيشون هكذا ، ويتكيفون مع بيئتهم ، لا تشغلهم مسألة الملابس هذه ، ولا يفكرون فيها، حتى يذهب إليهم المتحضرون ويروْنَ الملابس ، وكيف أنها زينة وستْر للعورة فيستخدمونها .

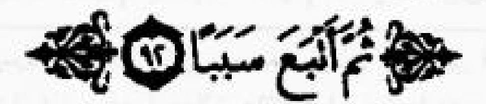
ونلاحظ هنا أن القرآن لم يذكر لنا عن هؤلاء القوم شيئاً ، وماذا فعل ذو القرنين معهم ، وإنْ قسْنا الأمر على القوم السابقين الذين قابلهم عند مغرب الشمس نقول : ربما حضَّرهم ووفَّر لهم أسباب الرُّقى .

وبعض المفسرين يروْنَ أن ذا القرنين ذهب إلى موضعٍ يومُه ثلاثة أشهر ، أو نهاره ستة أشهر ، فصادف وصوله وجود الشمس فلم يَرَ لها غروباً فى هذا المكان طيلة وجوده به ، ولم يَرَ لها ستْراً يسترها عنهم ، ويبدو أنه ذهب فى أقصى الشمال .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ﴾

كذلك : يعنى ذهب كذلك ، كما ذهب للمغرب ذهب للمشرق .



ذهب إلى مكان آخر .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ[(١)] وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ ﴾

السد: هو الحاجز بين شيئين ، والحاجز قد يكون أمراً معنوياً ، وقد يكون طبيعياً محسوساً كالجبال ، فالمراد بالسدين هنا جبلان بينهما فجوة ، وما دام قد قال : (بين السدين) فالبَيْن هنا يقتضى وجود فجوة بين السدين يأتى منها العدو .

﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [الكهف] أى : تحتهما ﴿ قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [الكهف] أى : لا يعرفون الكلام ، ولا يفقهون القول ؛ لأن الذى يقدر أن يفهم يقدر أن يتكلم ، وهؤلاء لا يقولون كلاماً ، ولا يفهمون ما يُقَال لهم ، ومعنى : ﴿ لَّا يَكَادُونَ .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [الكهف] لا يقربون من أن يفهموا ، فلا ينفى عنهم الفَهْم ، بل مجرد القُرْب من الفهم ، وكأنه لا أملَ فى أن يفهمهم .

لكن ، كيف نفى عنهم الكلام ، ثم قال بعدها مباشرة : ﴿ قَالُوا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ .. ﴿٩٤﴾ ﴾ [الكهف] فأثبت لهم القول ؟

يبدو أنه خاطبهم بلغة الإشارة ، واحتال على أن يجعلَ من حركاتهم كلاماً يفهمه وينفذ لهم ما يريدون ، ولا شكَّ أن هذه العملية احتاجت منه جهداً وصبراً حتى يُفهمهم ويَفْهم منهم ، وإلا فقد كان فى وُسْعه أنْ ينصرف عنهم بحجة أنهم لا يتكلمون ولا يتفاهمون .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٢٢٤/٦) : « هما جبلان من قبل أرمينية وأذربيجان » . وقال ابن كثير (١٠٣/٣) : « هما جبلان متناوحان بينهما ثغرة يخرج منهما يأجوج ومأجوج على بلاد الترك » .

فهـو مثـال للرجل المؤمن الحـريص على عمل الخيـر ، والذى لا يألو جَهْداً فى نَفْع القوم وهدايتهم .

والإشارة أصـبحت الآن لغـة مشـهورة ومـعروفـة ، ولها قـواعد ودارسون يتفاهمون بها ، كما نتفاهم نحن الآن مع الأخرس .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا[(1)] عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾

المـراد بالقول هـنا : دلالة مُعبِّـرة تعبيـر الـقول ، فـلا بُدَّ أنهم تعارفوا على شيء كالإشارة مثلاً يتفاهمون به .

ويأجوج ومـاجوج قوم خَلْف السـدين أو الجبلين ، ينفـذون إليهم من هذه الفجـوة ، فيؤذونهم ويعتـدون عليهم ؛ لذلك عرضـوا عليه أن يجعلوا له (خَـرْجًا) أى : أجراً وخراجـاً يدفعونه إليـه على أنْ يسدَّ لهم هذه الفجوة ، فلا ينفذ إليهم أعداؤهم .

ثم يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن ذى القرنين أنه :

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ﴾

والقـوْل هنا أيضـاً قَـوْل دلالة وإشـارة تُفهـمـهم أنه فى غِنىً عن

(١) الخَرْج والخَرَاج : ما يخرجه صاحب المـال للعامل عنده من الأجر جزاء عمله . [القاموس القويم ١/ ١٩٠] .

الأجر ، فعنده الكثير من الخير الذى أعطاه الله ، إنما هو فى حاجة إلى قوة بشرية عاملة تُعينه ، وتقوم معه بتنفيذ هذا العمل .

ونفهم من الآية أن المعونة من المُمكَّن فى الأرض المالك للشىء يجب أن تكون حسْبة لله ، وأنْ تُعين معونة لا تحوج الذى تعينه إلى أن تُعينه كل وقت ، بل أعنه إعانة تغنيه أن يحتاج إلى المعونة فيما بعد ، كأن تعلّمه أنْ يعمل بنفسه بدل أنْ تعطيه مثلاً مالاً ينفقه فى يومه وساعته ثم يعود محتاجاً ؛ لذلك يقولون : لا تُعطنى سمكة ، ولكن علِّمنى كيف أصطاد ، وهكذا تكون الإعانة مستمرة دائمة ، لها نَفَس ، ولها عُمْر .

ولما كان ذو القرنين ممكَّناً فى الأرض ، وفى يده الكثير من الخيرات والأموال ، فهو فى حاجة لا إلى مال بل إلى الطاقة البشرية العاملة ، فقال : ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ .. (٩٥)﴾ [الكهف] أى : قوة وطاقة بشرية قوية مخلصة ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥)﴾ [الكهف]

ولم يقُلْ : سداً ؛ لأن السدّ الأصمّ يعيبه أنه إذا حصلت رَجَّة مثلاً فى ناحية منه ترجّ الناحية الأخرى ؛ لذلك أقام لهم ردماً أى : يبنى حائطاً من الأمام وآخر من الخلف ، ثم يجعل بينهما ردماً من التراب ليكون السد مَرِناً لا يتأثر إذا ما طرأت عليه هزة أرضية مثلاً ، فيكون به التراب مثل « السوُست » التى تمتص الصدمات .

والردم أن تضع طبقات التراب فوق بعضها ، حتى تردم حُفْرة مثلاً وتُسوّيها بالأرض ، ومن ذلك ما نسمعه عندما يعاتب أحدهم صاحبه ، وهو لا يريد أنْ يسمعَ ، فيقول له : اردم على هذا الموضوع .

﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ(١) حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ ﴾

لم يكن ذو القرنين رجلاً رحالة ، يسير هكذا بمفرده ، بل مكَّنه الله من أسباب كل شيء ، ومعنى ذلك أنه لم يكن وحده ، بل معه جيش وقوة وعدد وآلات ، معه رجال وعمال ، معه القوت ولوازم الرحلة ، وكان بمقدوره أنْ يأمرَ رجاله بعمل هذا السدِّ ، لكنه أمر القوم وأشركهم معه في العمل ليُدرِّبهم ويُعلِّمهم ما داموا قادرين ، ولديهم الطاقة البشرية اللازمة لهذا العمل .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا .. ﴿٧﴾ ﴾ [الطلاق] فما دام ربك قد أعطاك القوة فاعمل ، ولا تعتمد على الآخرين ؛ لذلك تجد هنا أوامر ثلاثة : أعينوني بقوة ، آتوني زبر الحديد ، آتوني أفرغ عليه قطراً .

زبر الحديد : أي قطع الحديد الكبيرة ومفردها زُبْرة ، والقطْر : هو النحاس المذاب ، لكن ، كيف بنى ذو القرنين هذا السد من الحديد والنحاس ؟

هذا البناء يشبه ما يفعله الآن المهندسون في المعمار بالحديد والخرسانة ؛ لكنه استخدم الحديد ، وسَدَّ ما بينه من فجوات بالنحاس المذاب ليكون أكثر صلابة ، فلا يتمكن الأعداء من خَرْقه ، وليكون أملسَ ناعماً فلا يتسلقونه ، ويعلُون عليه .

فقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ .. ﴿٩٦﴾ ﴾ [الكهف] الصدف :

---

(١) زُبَر الحديد : قطعه . والصدفان : الجانبان . [القاموس القويم ١/٢٨٣ ، ٣٧١] .

الجانب ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا .. (١٥٧)﴾ [الأنعام] أي : مال عنها جانباً .

فمعنى : ساوى بين الصدفين . أي : ساوى الحائطين الأمامي والخلفي بالجبلين ﴿قَالَ انفُخُوا .. (٩٦)﴾ [الكهف] أي : في الحديد الذي أشعل فيه ، حتى إذا التهب الحديد نادى بالنحاس المذاب ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦)﴾ [الكهف] وهكذا انسبكَ الحديد الملتهب مع النحاس المذاب ، فأصبح لدينا حائطٌ صلْبٌ عالٍ أملس .

لذلك قال تعالى بعدها :

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)﴾

(أنْ يظهرُوهُ) أي : ما استطاعت يأجوج ومأجوج أن يعلوا السد أو يتسلقوه وينفذوا من أعلاه ؛ لأنه ناعم أملس ، ليس به ما يمكن الإمساك به : ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)﴾ [الكهف] لأنه صلْب .

ثم يقول تعالى على لسان ذي القرنين :

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨)﴾

لم يَفُتْ ذا القرنين - وهو الرجل الصالح - أنْ يسند النعمة إلى المنعم الأول ، وأنْ يعترف بأنه مجرد واسطة وأداة لتنفيذ أمر الله : ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي (٩٨)﴾ [الكهف] لأنني أخذتُ المقوِّمات التي منحني الله إياها ، واستعملتها في خدمة عباده .

الفكر مخلوق لله ، والطاقة والقوة مخلوقة لله ، المواد والعناصر في الطبيعة مخلوقة لله ، إذن : فما لي أن أقول : أنا عملتُ كذا وكذا ؟

ثم يقول تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي .. ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف] أى: الآخرة ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ .. ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف] فإياكم أنْ تظنوا أن صلابة هذا السدِّ ومتانته باقية خالدة، إنما هذا عمل للدنيا فحسب، فإذا أتى وَعْد الله بالآخرة والقيامة جعله الله دكّاً وسوّاه بالأرض، ذلك لكى لا يغترون به ولا يتمردون على غيرهم بعد أنْ كانوا مُستذلّين مُسْتضعفين ليأجوج ومأجوج. وكأنه يعطيهم رصيداً ومناعة تقيهم الطغيان بعد الاستغناء.

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف] واقعاً لا شكَّ فيه.

والتحقيق الأخير فى مسألة ذى القرنين وبناء السد أنه واقع بمكان يُسمَّى الآن (بلخ) والجبلان من جبال القوقاز، وهما موجودان فعلاً، وبينهما فَجْوة مبنىٌّ فيها، ويقولون: إن صاحب هذا البناء هو قورش، وهذا المكان الآن بين بحر قزوين والبحر الأسود.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾

فإذا كانت القيامة تركناهم يموج بعضهم فى بعض، كموج الماء لا تستطيع أن تفرق بعضهم من بعض، كما أنك لا تستطيع فصل ذرات الماء فى الأمواج، يختلط فيهم الحابل بالنابل، والقوىّ بالضعيف، والخائف بالمخيف، فهم الآن فى موقف القيامة، وقد انتهت العداوات الدنيوية، وشُغل كل إنسان بنفسه.

وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ [الكهف]

وهذه هي النفخة الثانية ؛ لأن الأولى نفخة الصَّعْق ، كما قال تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) ﴾ [الزمر]

فالنفخة الأولى نفخة الصَّعْق ، والثانية نفخة البَعْث والقيامة ، والصَّعْق قد يكون مميتاً ، وقد يكون مُغْمياً لفترة ثم يفيق صاحبه ، فالصَّعْق المميت كما في قوله تعالى :

﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٤٤) ﴾ [الذاريات]

أما الصَّعْقة التي تُسبِّب الإغماء فهي مثْل التي حدثت لموسى ـ عليه السلام ـ حينما قال : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) ﴾ [الأعراف]

فالجبل الأشمّ الراسي الصَّلْب اندكّ لما تجلَّى له الله ، وخَرَّ موسى مصعوقاً مُغمى عليه ، وإذا كان موسى قد صُعِق من رؤية المتجلَّى عليه ، فكيف برؤية المتجلِّي سبحانه ؟

وكأن الحق سبحانه أعطى مثلاً لموسى ـ عليه السلام ـ فقال له : لست ضنيناً عليك بالرؤية ، ولكن قبل أن تراني انظر إلى الجبل أولاً ليكون لك مثالاً ، إذن : لا يمنع القرآن أنْ يتجلى الله على الخَلْق ، لكن هل نتحمل نحن تجلِّي الله ؟

فمن رحمة الله بنا ألاَّ يتجلى لنا على الحالة التي نحن عليها في الدنيا . أما في الآخرة ، فإن الخالق سبحانه سيُعِدّنا إعداداً آخر ،

وسيخلقنا خلْقة تناسب تجلِّيه سبحانه على المؤمنين في الآخرة ؛ لأنه سبحانه القائل : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة]

وسوف نلحظ هذا الإعداد الجديد في كُلِّ أمور الآخرة ، ففيها مثلاً تقتاتون ولا تتغوطون ؛ لأن طبيعتكم في الآخرة غير طبيعتكم في الدنيا .

لذلك جاء السؤال من موسى - عليه السلام - سؤالاً علمياً دقيقاً : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] أي : أرني كيفية النظر إليك ؛ لأني بطبيعتي وتكويني لا أراك ، إنما إنْ أريتني أنت أرى .

وفي ضوء هذه الحادثة لموسى - عليه السلام - نفهم حديث النبي ﷺ : « لا تُخيِّروا بين الأنبياء ، فإن الناس يُصْعَقون يوم القيامة ، فأكون أولَ مَنْ تنشقُّ عنه الأرض ، فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أكان فيمن صَعِق ، أم حُوسِب بصَعْقة الأولى »(١) .

قالوا : لأنه صَعِق مرة في الدنيا ، ولا يجمع الله تعالى على عبده صَعقتَيْن .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) ﴾

أي : تُعرَض عليهم ليروها ويشاهدوها ، وهذا العَرْض أيضاً للمؤمنين ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا .. (٧١) ﴾ [مريم] والبعض يظن أن (واردها) يعني : داخلها ، لا بل واردها

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤١٢) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٣٧٤) من حديث أبي سعيد الخدري .

بمعنى : يراها ويمرُّ بها ، فقد ترد الماء بمعنى تصل إليه دون أنْ تشربَ منه ؛ ذلك لأن الصراط الذى سيمر عليه الجميع مضروبٌ على ظهر جهنم ليراها المؤمن والكافر .

أما المؤمن فرؤيته للنار قبل أنْ يدخل الجنة تُريه مدى نعمة الله عليه ورحمته به ، حيث نجّاه من هذا العذاب ، ويعلم فضل الإيمان عليه ، وكيف أنه أخذ بيده حتى مَرَّ من هذا المكان سالماً .

لذلك يُذكّرنا الحق سبحانه بهذه المسألة فيقول : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران]

أما الكافر فسيُعرض على النار ويراها أولاً ، فتكون رؤيته لها قبل أن يدخلها رؤية الحسرة والندامة والفزع ؛ لأنه يعلم أنه داخلها ، ولن يُفلتَ منها .

وقد وردتْ هذه المسألة فى سورة التكاثر حيث يقول تعالى : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) ﴾ [التكاثر]

والمراد : لو أنكم تأخذون عنِّى العلم اليقينى فيما أُخبركم به عن النار وعذابها لكُنْتم كمنْ رآها ، لأننى أنقل لكم الصورة العلمية الصادقة لها ، وهذا ما نُسمِّيه علم اليقين ، أما فى الآخرة فسوف ترونَ النار عينها . وهذا هو عين اليقين أى : الصورة العينية التى ستتحقق يوم القيامة حين تمرُّون على الصراط .

وبرحمة الله بالمؤمنين وبفضله وكرمه تنتهى علاقة المؤمن بالنار عند هذا الحد ، وتُكتب له النجاة ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) ﴾ [التكاثر]

أما الكافر والعياذ بالله فلَهُ مع النـار مرحلة ثالثة هي حَقُّ اليقين ، يوم يدخلهـا ويبـاشر حَـرَّها ، كـما قـال تعـالى : ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴾ [الواقعة]

إذن : عندنا علْم اليقـين ، وهـو الصورة العلميـة للنار ، والتى أخبـرنا بها الحق سـبحـانه وتعالى ، وأن من صـفات النار كـذا وكذا وحذَّرنا منها ، ونحن فى بحبوحة الدنيا وسـعَتها . وعَيْن اليقين : فى الآخـرة عندما نمـرُّ على الصـراط ، ونرى النار رؤيا العـين . ثم حَقُّ اليقين : وهذه للكفار حين يُلْقَوْن فيها ويباشرونها فعلاً .

وقد ضربنا لذلك مثلاً : لو قُلْتُ لك : توجد مدينة اسمها نيويورك وبها ناطحات سـحاب ، وأنها تقع على سبع جزر ، ومن صفـاتها كذا وكذا فـأعطيك عنها صـورة علمية صـادقة ، فإنْ صـدَّقتنى فـهذا علْم يقين . فإنْ مررنا عليها بالطائرة ورأيتها رأْىَ العين فهذا عَيْن اليقينَ ، فإنْ نزلت بها وتجولت خلالها فهذا حَقُّ اليقين .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) ﴾ [الكهف] ليس كعرضـها على المؤمنين ، بل هو عَرْض يتحـقّق فيه حَقُّ اليقين بدخولها ومباشرتها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) ﴾

أى : على أبصـارهـم غشـاوة تمنعـهم إدراك الـرؤية ، ليس هذا وفقط ، بل ﴿ وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) ﴾ [الكهف]

والمـراد هنا السمـع الذى يستـفـيد منه السـامع ، سَمْع العبـرة

والعظة ، وإلا فآذانهم موجودة وصالحة للسمع ، ويسمعون بها ، لكنه سماعٌ لا فائدةَ منه ؛ لأنهم ينفرون من سماع الحق ومن سماع الموعظة ويسدُّون دونها آذانهم ، فهم في الخير أذن من طين ، وأذن من عجين كما نقول .

أما المؤمنون فيقول الحق تبارك وتعالى فيهم : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ .. (٨٣) ﴾ [المائدة]

إذن : فكراهية أولئك للمسموع جعلتهم كأنهم لا سَمْعَ لهم ، كما نقول نحن في لغتنا العامية : (أنت مطنش عنى) ، يعنى : لا تريد أنْ تسمعَ ، ومن أقوال أهل الفكاهة : قال الرجل لصاحبه : فيك مَنْ يكتم السرّ ؟ قال : نعم ، قال : أعْطنى مائة جنيه ، قال : كأنّى لم أسمع .

ولذلك حكى القرآن عن كفار مكة قولهم : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾ [فصلت]

يعنى : شَوِّشُوا عليه ، ولا تُعطوا الناس فرصة لسماعه ، ولو أنهم علموا أن القرآن لا يؤثر فى سامعه ما قالوا هذا ، لكنهم بأذنهم العربية وملكَتهم الفصيحة يعلمون جيداً أن القرآن له تأثير فى سامعه تأثيراً يملك جوانب نفسه ، ولابُدَّ لهذا العربى الفصيح أنْ يهتزَ للقرآن ، ولابُدَّ أنه سيعرف أنه مُعجز ، وأنه غير قَوْل البشر ، وحتماً سيدعوه هذا إلى الإيمان بأن هذا الكلام كلام الله ، وأن محمداً رسول الله ؛ لذلك قال بعضهم لبعض محذراً : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ .. (٢٦) ﴾ [فصلت]

وفى آية أخرى يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ